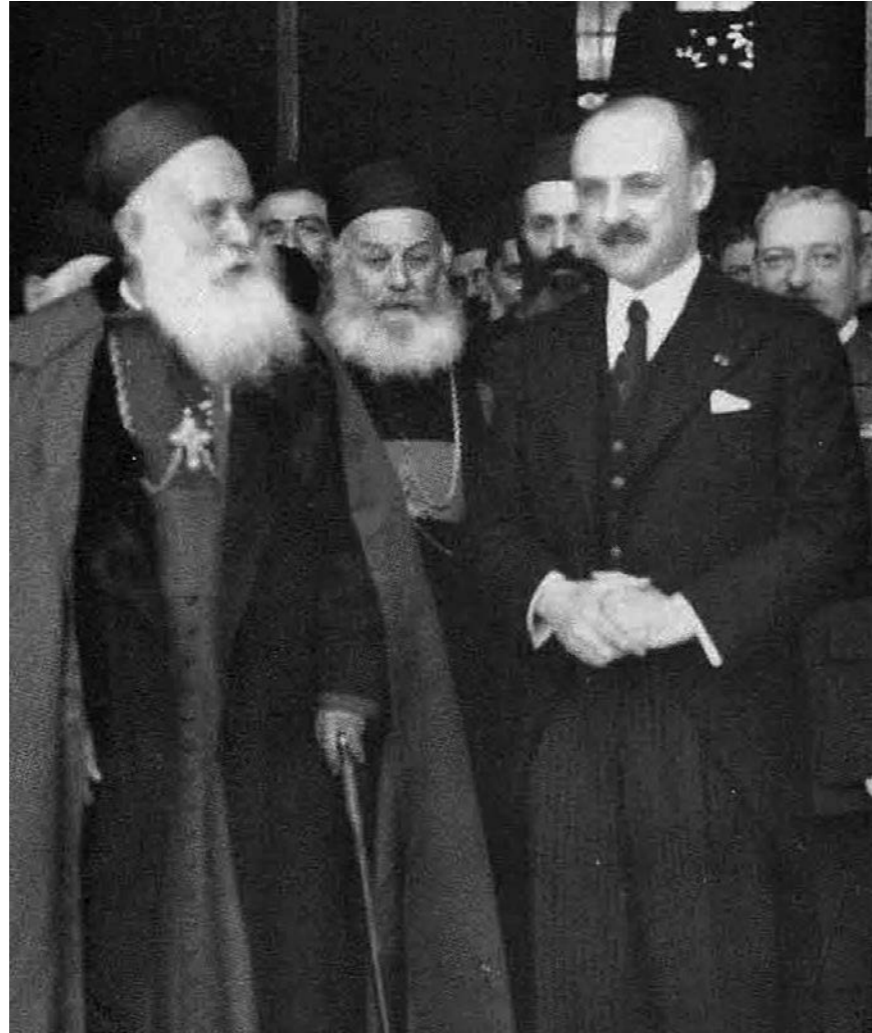


صفحات من لبنان

بقلم العميد الركن المتقاعد ادونيس نعمة

مئوية لبنان الكبير [5]
المفوض السامي غبريال بيّو في بكركي

المفوض السامي الفرنسي غبريال بيّو مع البطريرك الماروني مار انطون بطرس عريضة في بكركي.

ليدافعوا عن سلامة ايمانهم. وكان البطارقة يقيمون في اعماق هذه المضائق البرية التي تحتوي جدرانها على خلايا النساك، ولهم في قنوبين مقام من الحجارة الغليظة حججته ذات يوم بعيدا عن كل ابهة رسمية، وكانت تلزمني لبلوغه ساقان كما لمتسلقي جبال الالب. وفي نزولي من بشري الى لجة قاديشا توقفت في دير مار اليسع، وهو مقفر اليوم، قاصدا ان احيي فيه ذكرى المسيو شاستيل، وهو نبيل من مقاطعة البروفنس (فرنسا) اعتزل الدنيا في هذا المكان، في القرن السابع عشر، ليعيش عيشة نسكية، وانهى ايامه فيه برائحة القداسة".

ويصف المسيو بيّو ما رآه في هذا الموضوع: "لما وصلت الى قنوبين استقبلني كاهن صغير. تحميه من وهج الشمس مظلة من نسيج التيسور (الحرير الهندي الخشن). ففرع الجرس احتفاء بقدمي، وقادني الى كنيسة مزدانة بالزخارف البيزنطية المصطلح عليها في القرن الخامس عشر، رصفت فيها عموديا، على مدار الحيطان، نعوش سبعة عشر بطريركا، كما قادي الى مغارة مارينا التي يجلبها الموارد، ورويت لي قصتها".

وعرّج المسيو بيّو، حين الانتهاء من زيارته لقنوبين، على الديمان ليؤدي واجباته للبطريرك الذي اراه الكنيسة بهندستها وزخارفها وتصاويرها الجدران من ريشة احد الفنانين اللبنانيين صليبا الدويهي، ودعاه من ثم الى مائدته، وكانت له معه، على الاثر، خلوة دارت على البغاء، والتبغ، والملح، وامور بعض الموظفين اللبنانيين.

وذكر بيّو انطباعاته ومشاعره عن هذه الزيارة وعن مشاهداته بنسقي من التعابير والتلميحات المبطنة، وهو منطبق مستغرب صدوره عن ممثل لفرنسا نحو زعيم لبناني ورئيس ديني كبير ذهب سلفه الشيخ الى مؤتمر الصلح في باريس حاملا اقاله ليطالب بوضع بلده، لبنان، تحت الوصاية الفرنسية.

لاعلمه بنتائج درسي لها بل كلّف من ينوب عني في ذلك.

وفي فصل الصيف يتك البطريرك مقره في بكركي، وهو على مرتفع من الارض يبعد مسافة نصف ساعة في السيارة عن بيروت، ذاهبا الى مهد المارونية في وادي قاديشا المقدس الذي يتجوف من اسوار غابة الارز حتى ضواحي طرابلس. على شكل مَفْرَج هائل بين جبلين بلونيه الاحمر والافخر. فالي هنا، في ازمة البطولات، كان ينسحب الموارد

الطراز الامبريكي، وهاتفه، وكرايته، وملفاته، وسجلاته، وروزنامته المثبتة في الحائط تذكر بنشاط رجل اداري اكثر مما هو راع للنفس. ولم تتر في الاحاديث التي دارت بيننا ادنى قضية خلقية الا قضية البغاء التي كان يخشى اخطارها على ابناء رعيته. فالامور التي تهّم البطريرك كانت حصرا من النوع الزمني، وما اقترحه علي من الاشياء لم يبد لي مطابقا تماما لوجهات نظر الحكومة اللبنانية ومشروعاتها. فوعده بان ادرس مطالبه، ولم اعد اليه

الى ان يقيم من نفسه مدافعا عن المزارعين الذين اعتبروا المونوبول مضرا بحقوقهم. وهذا التدخل من جانب البطريرك اغضب المسيو دو مارتيل، وما عتم ان وصل صدى غضبه الى البطريرك مجسدا بعبارات بالغة الخشونة (تلفظ بها دو مارتيل في ليلة ساهرة في ملهى الكيت كات). ثم تصعدت الامور بين دو مارتيل والكتلة الوطنية في سوريا، ورأى الناس بعين الدهشة هذا الحبر يجعل من قضية المعارضة الدمشقية قضيته في المطالبة للحضارة العربية المزعوم تهديدها بحقها في الحياة. وارسل البطريرك كتابا الى "الشعب المسلم الكريم" جرت تلاوته في الجامع الاموي في دمشق في 7 كانون الثاني 1938 واستقبلت حركة البطريرك الالتحامية بحماسة في سوريا، وحياه الشعب مطلقا عليه لقب بطريرك العروبة".

ازدادت العلاقات توترا بين بكركي وقصر الصنوبر كما لم يسبق له مثيل، ولم تجر الزيارات عند سفر دو مارتيل نهائيا الى فرنسا.

يضيف بيّو: "وعند وصولي الى بيروت اعلنت استعدادي لاعادة ربط الخيوط، فابدى البطريرك، بادئ ذي بدء، رغبته بان يخطو المفوض السامي الخطوة الاولى، فيشكل ذلك اعترافا لامير الموارد بالتقدم على الطوائف الدينية الاخرى. ولكنه لم يصر على ذلك، وزارني يرافقه موكب مكثف من الاحبار، والكهنة، والاتباع والموالين من كل الاعمار ومن كل الاوضاع. فرأيت فيه شيئا جميلا الطلعة، اقنى الانف، وعينه سوداء، حادة، وسماط جميل فضي يحيط بوجه ملون.

جاء في كتابه "سنتان في بلدان المشرق"، الصفحة 248 وما يليها كما ترجمها المؤرخ جوزف نعمة:

"اصبحت فرنسا دولة منتدبة، فوجب عليها ان تكون كلا للكل. عواطفها نحو الموارد بقت، لكن الصديق القديم لا ينظر دائما بعين الرضى الى من ظن حبه وقفا عليه عندما تتسع دائرة صداقاته. كان البطريرك يمارس، زمن الاتراك، سيادة زمنية حقيقية، اذ كان تجاه الحاكم الممثل المسموع الكلمة لطائفته، ومقرّاه في بكركي والديمان اشبه بقصور الامراء. عندما كانت سفن بحريتنا تتحول قرب الساحل السوري كان امراء الاسطول يتبادلون الزيارات الاحتفالية مع البطريرك، ولم يبق اليوم من آداب الديبلوماسية هذه الا ذكراها. والبطريرك الياس الحويك كان يحمل خاتما عليه رسم المرساة (الباطر) قدمه اليه البحارة مستعيزين به عن الخاتم الراعوي الذي اضاعه في مياه البحر في اثناء زيارته للاسطول. ولبنان لم يبق تلك المنطقة الجبلية الصغيرة التي اعطي لها، عام 1860، نظام خاص، وكان المورد فيها الاكثرية، واستثنيت منها مدينة بيروت. فالمنطقة هي الان لبنان الكبير بزيادة طرابلس المدينة السنية، والباق والساحل الجنوبي موطن الشيعة. وضمن هذا الواقع احتفظ البطريرك بمركز سام ولكنه غير مطلق كما كان من قبل، وكان يشق عليه هضم هذا الواقع الذي خلق في نفسه حقدا على سلطات الانتداب. وتخرجت الحال في زمن سلفي الكونت دو مارتيل عندما انشأ نظام حصر التبغ الذي الجأ المونونسيور عريضة